"في التسليم القرآني"

دلالة (من) الجارة في الخطاب القرآني:
مقاربة دلالية

Into Quranic Consent
Semantic of "From" as Prepositional in the Quranic Discourse
(Semantic Approach)

أ. م. د. صاحب منشد عباس الزيادي

العراق/ جامعة المثنى / كلية التربية الأساسية

قسم اللغة العربية

Asst.Prof. Sahib Manshid `Abbas Al-Zayadi

Department of Arabic, College of Basics Education, University of Al-Muthana,iraq

sahibmanad@gmail.com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

الملخص:

هذه الدراسة الموسومة بـ (دلالة (من) الجارة في الخطاب القرآني مقاربة دلالية) هي قراءة في التنوع الدلالي الذي يتجلى من استعمال هذه الأداة بشقيها الأصلي والزائد.

وقد حاولَتْ هذه الدراسة الوقوف على مواضع (من) الجارة في الاستعمال القرآني في ضوء السياق، والقرائن المستعملة من أجل الوصول إلى دلالتها في داخل النص القرآني.

ومن هنا سار البحث في محورين رئيسين عرض الأول لـ (من) الأصلية ودلالاتها المختلفة إذ بدأ بدلالات (من) الرئيسة المتمثلة بـ (الابتداء والتبعيض والبيان والسببية أو التعليل)، ثم ناقش طائفة من الدلالات التي اختلف فيها النحاة بين الابتداء والبدلية، وبين الابتداء والظرفية، وبين الابتداء والمجاوزة، وبين الابتداء والسببية والتبعيض مرجحاً فيها دلالة الابتداء؛ لأنها الأنسب إلى سياق النص القرآني.

وتناول دلالة (من) الجارة التي اختلف فيها النحاة ايضاً بين السببية والمجاوزة مرجحاً دلالة السببية والتعليل على معنى المجاوزة، وتطرق إلى دلالة هذا الحرف الذي اختلفوا فيه بين البيان والابتداء والظرفية مبيناً أن دلالة البيان هي الأرجح في ضوء السياق القرآني.

أما المحور الثاني فكان خاصاً بـ (من) الزائدة في الاستعمال القرآني، إذ وقفت الدراسة على طائفة من النصوص القرآنية التي وردت فيها (من) الزائدة وأفادت في جميعها التوكيد، ثم ناقشت ما ذهب إليه الأخفش (ت ٢١٥هـ) من القول بزيادة (من) في بعض النصوص القرآنية مرجحاً دلالة التبعيض التي تناسب سياق الآية المباركة.

Abstract:

The research study, Into Quranic Consent Semantic of "From" as prepositional in the Quranic Discourse, is a reading on the semantic diversity in using such a proposition as original and auxiliary and endeavours to pinpoint the issues of "from" in the Glorious Quran for the sake of its semantic manifestation in the Quranic text. Thus, the article focuses on two parts: the first tackles the originality of such a preposition and its diverse semantics. Yet the second does the auxiliary case of "from" in the Glorious Quran as found in certain Quranic texts to serve affirmation, as Al-Akhfash certifies that "from" is sometime auxiliary and sometimes delimits the sense.

تنقسم (من) الجارة في استعمال العربية إلى نوعين هما:

١-الأصلية

٢- الزائدة[١].

وقد وقفت هذه الدراسة على مواضع (من) الأصلية في ضوء الاستعمال القرآني الذي يجعل من السياق والقرائن العماد الذي به يكشف دلالة (من) داخل النص القرآني.

وقد اتضح من خلال ذلك أن ما ذكره النحاة من معانٍ مختلفة لهذا الحرف كالظرفية والبدلية والمجاوزة وغيرها لم تكن معاني مستوحاة من داخل النص القرآني، بل هي مبنية على نظر نحوي صرف لم يسبر أغوار النص القرآني، ولم يوظف السياق الذي وردت فيه.

من أجل ذلك حاولْتُ الإبقاء على الدلالات الرئيسة التي أفادتها (من) الجارة كالابتداء والبيان والسببية والتبعيض نزولاً عند ظاهر النص من جهة، ولمناسبة السياق من جهة أخرى.

ولابد من الإشارة إلى أن هذا البحث حاول أن يقتصر على دراسة الشواهد القرآنية التي ذُكرت في مصنفات النحويين حول (من) الجارة وما ساقوه من معانٍ مختلفة لها، ومناقشة هذه المعاني في ضوء دلالة النص القرآني.

دلالات (من) الأصلية[٢]

(١) الابتداء: والابتداء لغةً البدء بالشيء. قال ابن منظور: ((وبديت بالشيء وبدأت: ابتدأت، وابدأت بالأمر بدءاً: ابتدأت به، وبدأت الشيء فعلته ابتداء))[٣].

ولم يذكر النحويون تعريفاً لهذا المصطلح، لكنهم أشاروا في مصنفاتهم إلى هذه الدلالة في استعمالات من الجارة. فقد ذكر سيبويه في حديثه عن هذه الدلالة – أنك ((تقول إذا كتبت كتاباً من فلان إلى فلان))[٤]، وذهب أيضاً إلى أنها لابتداء الغاية في الأماكن[٥]، وقد تابع هذا الرأي جمهور النحاة[٦].

وقد اعترض الرضي الاستراباذي (ت٦٨٦هـ) على هذه التسمية التي شاعت في كتب النحاة بقوله: (كثيرا ما يجري في كلامهم أن (من) لابتداء الغاية وإلى لانتهاء الغاية ولفظ الغاية يستعمل بمعنى النهاية وبمعنى المدى، ويراد بالغاية في قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية جميع المسافة إذ لا معنى لابتداء النهاية وانتهاء النهاية)[٧]. ويبدو أن ما ذكره الرضي في هذا المورد فيه نظر، ذلك أن المقصود بالغاية في بعض الأمثلة التي ساقها سيبويه إنما يتصل بالمفعول ولا علاقة لها بالحدث الذي يجري فيه الابتداء والانتهاء، وهو ما يفهم من قوله: ((وتقول: رأيته من ذلك الموضع فجعلته غاية رؤيتك))[٨].

ولعل في هذا النص الذي يسوقه ابن السراج (ت. ٣١٦هـ) ما يكشف عن هذه المسألة قال: (وحقيقة هذه المسألة أنك إذا قلت: رأيت الهلال من موضعي (فمن) لك، وإذا قلت: رأيت الهلال من خلال السحاب، فمن للهلال والهلال غاية لرؤيتك، فكذلك جعل سيبويه (ت١٨٠هـ) (من) غاية في قولك: رأيته من ذلك الموضع)[٩].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن معنى الغاية في كلامهم كما يذكر الصبان(ت١٣٩٠هـ) هو (المسافة لا معناها الحقيقي الذي هو آخر الشيء فهو من تسمية الكل باسم الجزء وعلامتها أن يحسن في مقابلتها إلى أو ما يفيد فائدتها)[١٠].

ومن هنا فإن معنى ابتداء الغاية – في ضوء ما تقدم – هو ابتداء المسافة وانتهاؤها لا ما ذكره الرضي. وبالإفادة مما سبق يمكن القول: إننا إذا قلنا: خرجت من داري فمعنى ذلك أن ابتداء خروجي هو من داري، وإذا قنا: رأيت محمداً من داري، فمعناه أن ابتداء رؤيتي محمداً هو من داري، وأن محمداً هو غاية رؤيتي.

وإذا قلنا: سمعت من داري الرعد من السماء، فهذا يعني أن ابتداء سمعي الرعد كان من داري، وأن صوت الرعد كان مبتدئاً من السماء، بمعنى أن هناك موضعين للابتداء، موضع لابتداء السمع وهو الدار وموضع لابتداء صوت الرعد وهو السماء.

وإذا انتقلنا إلى الشواهد القرآنية التي تتصل بمعنى الابتداء نجد أنها تأتي للدلالة على ابتداء المكان وغيره، فمن دلالتها على الابتداء في المكان قوله تعالى: ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[١١]، وهو موضع اتفاق عند جمهور النحويين[١٢].

فقد أفادت (من) أن ابتداء الإسراء كان من المسجد الحرام كما هو ظاهر الآية المباركة ومن دلالتها على الابتداء مما ليس زماناً ولا مكاناً قوله تعالى: ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ ﴾[١٣]، والنور في الآية هو القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك ولإبانته ما كان خافياً عن الناس من الحق[١٤].

ومصدر هذا النور هو الله تبارك وتعالى، أما دلالتها على الابتداء في الزمان فقد منعها البصريون وأجازها الكوفيون والمبرد (ت ٢٨٦هـ) وابن درستويه(ت

٣٤٧هـ) ، وسنقف على هذه المسألة في المباحث القادمة عند مناقشة النصوص القرآنية التي اختلف النحاة في دلالتها.

(٢) دلالة التبعيض.

والتبعيض لغة هو بعض الشيء وهو طائفة منه قال ابن فارس(ت ٣٩٥هـ): (الباء والعين والضاد أصل واحد وهو تجزئة الشيء وكل طائفة منه بعض)[١٥]. وقد نص كثير من النحاة على دلالة (من) الجارة على التبعيض.

قال المبرد(ت ٢٨٦هـ): ((من) وتكون للتبعيض نحو: أخذت من مال زيد)[١٦]، وذهب جمع من النحاة إلى أنها لا تكون للتبعيض وإنما هي لابتداء الغاية وأن سائر المعاني التي ذكروها راجع إلى الابتداء وبيان الجنس[١٧].

ويبدو أن سبب هذا الخلاف يعود إلى التداخل الكبير بين هذه الدلالات الثلاث من جهة وإلى قصدية المتكلم من جهة أخرى، فإذا قلنا مثلاً: أخذت من اموالي درهماً فإذا قصدت أن ابتداء الأخذ ومصدره كان من الأموال فهي دالة على الابتداء، وإذا قصدت بيان المأخوذ من الأموال فهي بيانية، وإذا قصدت أنك أخذت جزءاً من الأموال لا جميعها فهي للتبعيض.

وهذا المعنى هو الذي عناه الرضي بقوله إن (المجرور بها (أي من التبعيضية) لا يطلق على ما هو مذكور قبله أو بعده؛ لأن ذلك المذكور بعض المجرور واسم الكل لا يقع على الكل، فإن قلت: عشرون من الدراهم فإن أشرت بالدراهم إلى دراهم معينة أكثر من عشرين فمن مبعضة؛ لأن العشرين بعضها، وإن قصدت بالدراهم جنس الدراهم فهي مبينة لصحة اطلاق اسم المجرور على العشرين)[١٨]. وقد استدل النحاة على هذا المعنى بطائفة من النصوص القرآنية التي أفادت دلالة

التبعيض من ذلك مثلاً:

قوله تعالى:﴿ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللهَّ عَلى ما فِي قَلْبِهِ ﴾البقرة/ ٢٠٤. فقد دلت (من) الجارة في الآية المباركة على التبعيض بعد ان نصت الروايات على أنها نزلت في الأخنس بن شريف وكان رجلاً حلو المنطق إذا لقي رسول الله ﷺ ألان له القول وادعى كذباً أنه يحبه[١٩]. ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهَّ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾البقـرة/ ٨[٢٠]. فقد تحدث القرآن الكريم عن طائفة من الناس وهم المنافقون فمن (آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا)[٢١]، و (من) هنا أقرب إلى دلالة التبعيض لأن الآيات التي سبقتها وصفت صنفين من الناس الأول: وهم المتقون الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، والثاني: الكافرون وهو الذين عناهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، ثم تلاها الصنف الثالث وهم المنافقون وذلك بقوله تعالى: ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهَّ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، فهذه الآية أرادت أن تبين أن هذا الصنف هم فريق من الناس وطائفة منه يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان بألسنتهم ليخادعوا به الله والذين آمنوا.

قال الزمخشري(ت٣١٠هـ): (افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ووافق سرهم علنهم، وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا وسماهم المنافقين... كأنه قيل: ومن هؤلاء من يقول: وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق... فإن قلت: كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقون غير المختوم على قلوبهم؟ قلت: الكفر جمع الفريقين معاً وصيرّهم جنساً واحداً)[٢٢].

(٣) دلالة البيان أو بيان الجنس.

والبيان لغة الايضاح بعد الغموض، قال ابن فارس: (وبان الشيء وأبان إذا اتضح وانكشف...)[٢٣]. وقد نص جمهور النحاة على دلالة (من) الجارة على بيان الجنس[٢٤].

وذكر الرضي ان أمارة دلالتها على البيان أن يكون قبلها (أو بعدها مبهم يصلح أن يكون المجرور بمن تفسيراً له وتوقع اسم ذلك المجرور على ذلك المبهم كما يقال مثلاً للرجس: إنه الاوثان ولعشرين إنها الدراهم في قولك عشرون من الدراهم وللضمير في قولك: عز من قائل: إنه القائل بخلاف التبعيضية)[٢٥]. وبناء على ما تقدم يمكن تحديد علاقتين تشخص بهما دلالة (من) على البيان دون غيرها من الدلالات.

(أ) يأتي قبلها مفهوم عام أو لفظ فيه ابهام به حاجة إلى بيان.

(ب) الاسم المجرور بها يكون مبيناً لهذا الابهام ونوعاً من أنواعه.

وقد وردت (من) دالة على هذا المعنى في العديد من النصوص القرآنية من ذلك مثلاً:

قولة تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ﴾ الحج/ ٣٠، فـ (من) الأوثان بيان للرجس وتمييز له لقولك: عندي عشرون من الدراهم؛ لأن الرجس مبهم يتناول غير شيء، كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان)[٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف/ ١٣٢[٢٧]. فـ (من) في قوله تعالى (من آية) بيانية أزالت الابهام عن (مهما) في صدر الآية المباركة[٢٨].

(٤) دلالة السببية.

والسبب لغة (كل شيء يتوسل به إلى شيء وغيره وقد تسبب إليه)[٢٩]، وقد أشار النحاة إلى أن من دلالات (من) الجارة هو السببية أو التعليل[٣٠]، وقد جاءت (من) الجارة في القرآن الكريم دالة على السببية في عددٍ من الآيات المباركات من ذلك:

(أ) قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ﴾ البقرة/ ١٩، فقد جاء في تفسير الكشاف أن قوله تعالى (من الصواعق) متعلق بجعلون، أي: من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم كقولك: سقاه من العيمة)[٣١].

(ب) قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً﴾ نوح/ ٢٥[٣٢].

فقد أفادت (من) في الآية الكريمة السببية والتعليل[٣٣] ذلك أن إغراقهم ومن ثم دخولهم النار كان بسبب من خطيئاتهم، فقد قيل: إن تقديم (مما خطيئاتهم)[٣٤] لبيان أن لم يكن اغراقهم بالطوفان فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم[٣٥].

هذه هي المعاني الرئيسة التي أفادتها (من) الجارة في التنزيل المبارك والتي هي موضع اتفاق بين النحاة والمفسرين. وإذا انتقلنا إلى طائفة أخرى من النصوص المباركة التي ساقها النحويون حول دلالة (من) الجارة فإننا نلحظ توسعاً وتنوعاً في دلالتها إذ أفادت معاني جديدة أخرى غير المعاني الرئيسة التي مرت كدلالة البدلية والعوض والظرفية والمجاوزة وغيرها. وهذا يعود إلى ان جمهور النحاة الكوفيين لا يمنعون إنابة حروف الجر بعضها عن بعض خلافاً لنحاة البصرة الذين لا يجيزون ذلك[٣٦]. ومن هنا نجدهم يوجهون دلالة (من) الجارة في بعض النصوص المباركة أنها بمعنى (في) الظرفية أو بمعنى (عن) الدالة على المجاوزة وهكذا من دون النظر إلى سياق النص وما يرشحه من دلالة تختلف عما ذكروه من دلالات.

لذا فالقول بالنيابة اعتماداً على المعنى الظاهر من دون النظر إلى سياق الآية المباركة والقرائن المستعملة فيها ربما يبعدنا كثيراً عن الوقوف على اسرار التعبير القرآني من استعمال هذا الحرف دون غيره، ويدعونا إلى سؤال لا يجد إجابة ناجعة وهو إذا كانت (من) الجارة في آية ما بمعنى حرف جر آخر كـ (في) أو (عن) فلماذا استعمل (من) ولم يستعمل ذلك الحرف؟!.

لذلك يرجح الباحث الابقاء على دلالات (من) الرئيسة الأربع وعدم القول بالنيابة في النصوص المباركة، ذلك أن القول بالنيابة يفتح الباب للتداخل بين دلالات حروف الجر كما يحصل الآن في مصنفات النحويين حتى أننا لا نصل إلى تحديد ثابت لدلالة حرف الجر، بل لا نكاد نصل إلى التعرف إلى الهوية الدلالية لحرف الجر، وربما يفضي إلى فوضى دلالية بين حروف الجر تجعلنا من الصعوبة بمكان الظفر بدلالة حرف الجر وتمييزه عن غيره من الحروف، فضلاً عن عدم إمكانية التعرف إلى اسرار التعبير القرآني.

(٥) دلالة (من) بين الابتداء والبدلية.

ذكر النحويون أن (من) الجارة تأتي بمعنى بدل واستدلوا على ذلك بنصوص قرآنية كما في:

(أ) قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِّ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ التوبة/ ٣٨.

فقد قيل: ((إن (من) في قوله تعالى (من الآخرة) بمعنى: بدل الآخرة))[٣٧]. وهذا يعني أن معنى الآية – في ضوء توجيه النحاة– أنهم جعلوا الحياة الدنيا

وارتضوها بدلاً وعوضاً عن الآخرة. ويبدو أن هذا المعنى ليس مراداً في الآية المباركة، فالآية بدأت بعتاب شديد لعباده الذين آمنوا والذين دُعُوا إلى الجهاد في سبيله ولكنهم أثاقلوا ومالوا إلى الراحة والدعة وحب الدنيا، وكرهوا مشاق السفر والآلام المصاحبة للجهاد والقتال(٣٨).

فكأن الرضا في قوله تعالى: ﴿أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا﴾، (أشرب معنى القناعة فعدّي بـ (من) كما يقال: رضيت من المال بطيبه، ورضيت من القوم بخلة فلان، وعلى هذا ففي الكلام نوع من العناية المجازية، كأن الحياة الدنيا نوع حقير من الحياة الآخرة قنعوا بها منها، ويُشعر بذلك قوله تعالى بعده فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)(٣٩).

أو يكون المعنى: أرضيتم قانعين بما يأتي من الآخرة بهذه الحياة الزائلة الحقيرة فكأن هؤلاء الذين آمنوا بتثاقلهم عن الجهاد وخلودهم إلى الراحة رضوا من الآخرة وما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة والرحمة الواسعة والراحة الأبدية بهذه الحياة الزائلة. ولا يخفى أن هذا المعنى أقرب إلى دلالة (من) على الابتداء منه إلى البدلية.

(ب) قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ الأنبياء/ ٤٢.

فقد قيل: إن (من) في قوله تعالى (من الرحمن) بمعنى بدل الرحمن(٤٠). فيكون المعنى – في ضوء هذا التوجيه– من يحفظكم بالليل والنهار غير الله؟ وهذا المعنى لا يرشحه سياق الآية والآيات التي قبلها وبعدها، لأنها تتحدث عن قدرة الله تعالى فهو القادر وحده ولا مؤثر في الوجود سواه، وكل ما يصيب الإنسان لا يمكن رده إلا بإذنه تعالى ومشيئته، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا

يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ ک وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ں قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ الأنبياء: ٣٩ – ٤٢. فيكون معنى الآية – في ضوء ما تقدم – من يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه وانتقامه[٤١]. وهذا المعنى يرشح دلالة (من) الجارة في الآية على الابتداء لا على البدلية.

(ج) قال تعالى: ﴿وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ الزخرف: ٦٠، فقد قيل: إن (من) في قوله تعالى: (لجعلنا منكم) بمعنى بدل أي: بدلكم[٤٢].

ومن ينعم النظر في النص المبارك يجد أن (من) الجارة أقرب إلى معنى الابتداء؛ لأن معنى الآية – كما يقول الزمخشري – (ولو نشاء ... بقدرتنا على عجائب الامور وبدائع الفطر... لجعلنا منكم... لولدنا منكم يا رجال ... ملائكة ... يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من انثى من غير فحل، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة اجسام لا تتولد إلا من أجسام)[٤٣].

فضلاً عن أن هذا التركيب اعني (جعل – من –) شائع في الاستعمال القرآني، ووردت فيه مواضع كثيرة من القرآن دلت فيه (من) على الابتداء وأفادت لفظة (الجعل) فيه معنى الخلق والايجاد، ولم تدل فيه (من) على البدلية في المواضع كافة. ولنضرب من ذلك مثلاً الآيات:

قال تعالى: ﴿وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ المائدة: ٦٠.

قال تعالى: ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً﴾ النحل: ٧٢.

قال تعالى: ﴿وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الأنبياء: ٣٠.

إلى غير ذلك من الآيات التي تترجح دلالة (من) فيها على الابتداء[٤٤].

(٦) دلالة (من) بين الابتداء والظرفية.

ذكرنا سابقاً أن (من) الجارة تدل على ابتداء الغاية في المكان وهو موضع اتفاق بين النحويين. أما دلالتها على ابتداء الغاية الزمانية فقد منعها البصريون وأجازها الكوفيون والمبرد وابن درستويه (ت ٣٤٧ هـ) [٤٥]، ورجح بعض النحويين دلالة (من) على ابتداء الغاية الزمانية[٤٦]. وهو الأقرب إلى دلالة النص القرآني، غير أن طائفة من النحاة حاولوا توجيه دلالة الابتداء في بعض النصوص إلى دلالة الظرفية أي: بمعنى (في) الظرفية كما في:

(أ) قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ التوبة: ١٠٨.

فقد ذكر الرضي – في تعليقه على هذا النص – أن (من) في الآية المباركة جاءت بمعنى (في) معللاً ذلك بأن ((المقصود من معنى الابتداء في (من) أن يكون الفعل المتعدي بـ (من) شيئاً ممتداً كالسير والمشي ونحوه، ويكون المجرور بـ (من) الشيء الذي منه ابتداء ذلك الفعل نحو: سرت من البصرة، أو يكون الفعل المتعدي بها أصلاً للشيء والممتد نحو: تبرأت من فلان إلى فلان)[٤٧]. ثم يخلص من ذلك إلى القول بأن التأسيس في الآية المباركة ليس حدثاً ممتداً ولا أصلاً للمعنى الممتد بل هو حدث واقع بعد (من) وهذا معنى (في) الظرفية[٤٨].

ويرى د. فاضل السامرائي أن في الكلام المتقدم نظرا ذلك (أن المقصود من معنى الابتداء في (من) أن يكون الفعل شيئاً ممتداً أو يكون أصلاً للممتد فإن ذلك في ابتداء الغاية وليس في عموم الابتداء ... فقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ التوبة: ١٠٨. (من) فيه للابتداء فبدء التأسيس على التقوى أول يوم فهي لابتداء وقوع الحدث)[٤٩].

ويبدو لي ان ثمة فرقاً بين قوله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، وقولنا: أسس على التقوى في أول يوم وهو أن أول يوم في الآية المباركة هو بدء التأسيس بصرف النظر عن كونه ظرفاً له وربما تحتمل ذلك لكنها ليست نصاً فيه.

اما قولنا: فمعناه أن ... أول يوم هو ظرف للتأسيس ولا تحتمل غيره فهي نص فيه وإذا رجعنا إلى سياق الآية الكريمة موضع البحث والآيات التي قبلها فإننا نلحظ أن دلالة الابتداء في الآية هي الأقرب؛ ذلك أن هذه الآية – كما يروي علماء التفسير – تتحدث عن مسجد قباء الذي بُني على تقوى الله، والذي وصفه القرآن الكريم بأن:﴿فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ التوبة: ١٠٨، في قبال المسجد الذي بناه المنافقون وأرادوا من النبي صلى الله عليه وآله أن يصلي فيه، وهو مسجد كما يصفه القرآن بقولـه: ﴿وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ التوبة: ١٠٧.

فالعبرة في تأسيس المسجد – كما يفهم من النص المبارك – لا تكمن في البناء، بل في غرض البناء، والأساس الذي ينطلق منه ذلك البناء وبعبارة أخرى أن القرآن الكريم أراد أن يلفت نظرنا إلى بدايات بناء المسجد وأصوله والدوافع التي وقفت وراء بنائه؛ لذلك تأتي (من) الجارة في النص لتناغم السياق فتكون دلالتها أقرب إلى معنى الابتداء منها إلى الظرفية.

(ب) قال تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الروم: ٤.

ذهب الرضي إلى أن (من) في مثل هذا الموضع بمعنى (في) قال: ((وذلك لأن (من) في الظروف كثيراً ما تقع بمعنى (في) نحو: جئت من قبل زيد ومن بعده[٥٠]. ونقل ابو حيان أن (من) هنا زائدة إلا أنه رجح دلالتها على الابتداء[٥١]. والراجح فيما يبدو أنها للابتداء فليست بمعنى (في) ولا هي زائدة.

فقد وردت (من) الجارة مقترنة بالظرفين (قبل) أو (بعد) في مواضع كثيرة من القرآن إذ أفادت فيها الدلالة على الابتداء، من ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ﴾ الأعراف: ١٠١. والمعنى - كما قيل (فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر اعمارهم بما كذبوا أولا حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إلى أن ماتوا مصرين لا يرعوون، ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات)[٥٢].

وقبل أن نقف على الآيات التي وردت فيها (قبل) أو (بعد) لابد لنا من الإشارة إلى أن هناك فرقاً دقيقاً بين قولنا: خرجت قبل طلوع الشمس، وقولنا: خرجت من قبل طلوع الشمس. فالأول: نص على أن وقت الخروج كان قبل طلوع الشمس، بمعنى أن وقت الخروج قد حصل قبل طلوع الشمس. أما الثاني فهو نص على أن الخروج قد ابتدأ قبل طلوع الشمس فهو نص على ابتداء وقت الخروج لا على وقت الخروج.

وإذا تأملنا في مواضع الآيات التي وردت فيها (قبل) و (بعد) فإننا نجد أنهما وظفتا في طائفة من الآيات مجردتين عن (من) الجارة؛ إذ أفادت جميعها الدلالة على وقت الحدث بقرينة (قبل) أو (بعد)، ودلت أيضاً على أن هذا الحدث هو حدث قريب ومتصل بما بعده في الغالب.

أما المواضع التي استعملتا فيها مسبوقتين بـ (من) الجارة فالأمر مختلف، إذ تفيد الدلالة على ابتداء الحدث، وأن الحدث الذي اقترنت به (قبل) أو (بعد) هو حدث بعيد وغير متصل بما بعده في الغالب. ولكي تتضح هذه المسألة نسوق عدداً من الآيات المباركة استعملت فيها (قبل) مجردة من (من) الجارة.

قال تعالى: (قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) الأعراف: ١٢٣ .

قال تعالى:(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)يوسف:٧٦.

قال تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) الرعد: ٦ .

قال تعالى:(قُلْ لَوْكَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) الكهف: ١٠٩ .

قال تعالى: (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) النمل: ٣٨.

قال تعالى:(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) النمل: ٣٩.

قال تعالى: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) النمل: ٤٠ .[٥٣]

ولا يخفى دلالة (قبل) في الآيات المتقدمة على الظرفية الزمانية؛ إذ أفادت ان الحدث فيها هو حدث قريب أو متصل بما بعده. وإذا انتقلنا إلى الطائفة الثانية من النصوص التي اقترنت فيها (قبل) بـ (من) الجارة كما في:

قال تعالى: (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ) البقرة: ٢٥.

قال تعالى: (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) البقرة: ٩١.

قال تعالى: (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ) البقرة: ١٠٨.

قال تعالى: (وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ [٣] مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ) آل عمران: ٣ – ٤

قال تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ) الأنعام: ٨٤.

قال تعالى: (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ) الأنعام: ١٥٨.

قال تعالى: (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ) الأعراف: ١٧٣.[٥٤]

فإننا نلحظ أن (من) الجارة قد أفادت معنى الابتداء في الزمان؛ فهي ليست بمعنى (في) الظرفية؛ لأن الظرفية الزمانية مستفادة من الظرف (قبل) ودلت أيضاً على أن الأحداث المذكورة قبل هذا الظرف هي أحداث بعيدة وغير متصلة – في الغالب – بزمن الحاضر.

(ج) قوله تعالى: (وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ) فصلت:٥.

ذهب عدد من النحاة إلى أن (من) الجارة في قوله تعالى ﴿وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ﴾ هي بمعنى (في) الظرفية[٥٥]. بيد أن المتأمل في النص المبارك يجد أن دلالة (من) هي أقرب إلى معنى الابتداء وهو المعنى الذي يتسق مع سياق الآية المباركة التي تتحدث عن صنف من الكافرين لا يؤمنون ولا يسمعون قوله (لنبو قلوبهم عن تقبل الحق، واعتقاده كأنها في غلف واغطية تمنع من نفوذه فيها)[٥٦].

وقد وجّه الزمخشري اقتران(من) بالظرف (بين) بقوله:(فإن قلت: هل لزيادة(من) في قوله (وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ) فصلت: ٥ ، فائدة؟ قلت: نعم؛ لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها)[٥٧]. ومن هنا فإن مجيء الظرف (بين) في

النص القرآني غير مقترن بـ (من) الجارة هو نص على الظرفية ليس غير[٥٨].

أما مجيؤها مقترنة بـ (من) فهو نص على الابتداء، ففي قوله تعالى: (وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ) النحل: ٦٦. فإن (من) في قوله تعالى ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ﴾، نص على الابتداء.

قال الزمخشري: (فإن قلت: أي فرق بين (من) الأولى والثانية؟ قلت: الأولى: للتبعيض؛ لأن اللبن بعض ما في بطونها... والثانية: لابتداء الغاية؛ لأن بين الفرث والدم مكان الاسقاء الذي منه يبدأ فهو صلة لنسقيكم)[٥٩].

(٧) دلالة (من) بين الابتداء والمجاوزة.

جاءت (من) الجارة في أكثر من موضع من القرآن الكريم، إذ ترددت دلالتها بين الابتداء والمجاوزة ونحاول هنا أن نقف على ثلاثة نصوص قرآنية ذكرها النحاة في مصنفاتهم حول هذه المسألة.

(أ) قوله تعالى:﴿ويَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾
البقرة: ٢٢٠، فقد ذكر غير واحد من النحويين أن (من) في هذه الآية جاءت للفصل إذ دخلت على ثاني المتضادين[٦٠]. بيد أن ابن هشام رجح دلالة (من) هنا على الابتداء أو المجاوزة[٦١]. وقيل: إن سبب تعدية الفعل (يعلم) بـ (من) (كأنها لمكان تضمينه معنى يميز)[٦٢].

والمتأمل في دلالة (من) في هذا النص يلحظ أن هذا التركيب أعني: (فعل العلم + (من) الجارة المتوسطة بين المتضادين) لا يقع إلا بعد اختلاط المتضادين، ثم التمييز بينهما، فإذا قلنا مثلاً: علمنا الكافر من المؤمن، فهذا يعني أن ثمة اختلاطاً بينهما ثم

حصل بعد ذلك تمييز بين المتضادين، وهذه المسألة يؤيدها المقطع السابق لهذه الآية وهو قوله تعالى: (وإن تخالطوهم) فالتمييز والعلم قد حصل بعد المخالطة. ومن هنا فدلالة (من) في الآية أقرب إلى معنى الابتداء، أي بمعنى ابتداء العلم بالمفسد كان من بين اختلاطه مع المصلح.

(ب) قوله تعالى: ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ آل عمران: ١٧٩. وتقترب دلالة (من) في هذا النص من النص السابق، لأن التركيب واحد (فعل العلم أو التمييز + (من) المتوسطة بين المتضادين)[٦٣].

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: (ما كان الله ليذر المخلصين فيكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم؛ لاتفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه واخباره بأحوالكم)[٦٤].

(ج) قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾ الأنبياء: ٩٧. فقد ذهب بعض النحاة أن (من) في قوله تعالى: (من هذا) بمعنى عن هذا[٦٥]. فيكون المعنى: قد كنا في غفلةٍ عن هذا ويبدو أن السبب في هذا التضمين هو أن لفظة (الغفلة) – في ضوء الاستعمال اللغوي – يتعدى بحرف الجر (عن) لأنه بمعنى ترك وسها، قال ابن منظور: (غفل عنه: يغفل غفولاً، وغفلة، وأغفله عنه غيره، وأغفله: تركه وسها عنه)[٦٦].

ولم يخرج الاستعمال القرآني عن ذلك، فقد تكررت هذه اللفظة في أكثر من عشرين موضعاً جاءت في جميعها متعدية بـ (عن) الدالة على المجاورة[٦٧]. غير أن اللافت في هذه المسألة هو ورود موضعين من القرآن الكريم تعدت هذه اللفظة بحسب الظاهر بـ (من) الجارة التي اختلفوا فيها بين الابتداء والمجاوزة.

والموضع الأول ما ذكرته في بداية هذه الفقرة أما الموضع الثاني فهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق: ٢٣. فقد قيل إن (من) في قوله تعالى ﴿يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾، هي للابتداء وتفيد أن ما بعد ذلك من العذاب أشد وكأن هذا القائل يعلق معناها بـ (ويل)[٦٨]. وهذا بعيد؛ لأن قوله تعالى (يا ويلنا) هو دعاء من أنفسهم بالويل[٦٩].

أما الكلام الذي بعده وهو قوله تعالى: (قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا) فهو كلام مستأنف، ولا يمكن تعليق الجار والمجرور (من هذا) بلفظة (الويل)، وقد حاول الدكتور فاضل السامرائي أن يلتمس توجيهاً دلالياً لهذا الاستعمال القرآني مرجحاً فيه دلالة (من) على الابتداء، وذلك عندما قارن بين هذا النص موضع البحث ونص قرآني آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ النساء: ١٠٢، يقول: (فإن ثمة فرقاً بين الآيتين فقوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ﴾ النساء: ١٠٢، يفيد أن الغفلة عارضة، و (عن) للمجاوزة وذلك أن هؤلاء في ساحة القتال، وهم متهيئون له، معهم أسلحتهم وأمتعتهم، ولكن يود الذين كفروا غفلة عن الاسلحة والأمتعة، فيميلون عليهم، وأما الغفلة في قوله تعالى: ﴿يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾ الأنبياء: ٩٧، فهي غفلةٌ ابتدائية لازمة لا عارضة، أي: هم في غفلة دائمة، فلم يستعدوا للآخرة كما استعدّ أولئك للقتال، فغفلة هؤلاء غفلة ابتدائية ملازمة ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق: ٢٣، ولم يقل عن هذا؛ لأن الإنسان في غفلة من عالم الغيب ملازمة له من حين ولادته إلى أن يموت فينكشف عنه ذاك الغطاء، وتزول الحجب فيبصر ما لم يكن يبصر، ويرى ما لم يكن يرى، فالغفلة ابتدائية وذلك أن بينها حجاباً، ابتدأ من هذا الأمر أو ذاك)[٧٠].

وهذا الرأي لا يمكن التسليم به ذلك أن دلالة الملازمة للغفلة التي ذكرها

السامرائي لا يمكن أن تؤخذ من حرف الجر (من) بل تأتي من أساليب تعبيرية أخرى منها مثلاً: اقتران لفظة الغفلة في النصين المباركين بحرف الجر (في) الدال على الظرفية لتفيد أن الغفلة قد أحاطت بهم من كل جانب واستغرقتهم واشتملت عليهم، ومنعتهم من مشاهدة الآيات والبراهين الربانية، فلم يؤمنوا ولم يذعنوا للحق – والحال هذه – بعد ذلك.

أو يكون من خلال العدول إلى البنية الاسمية بدلاً من الفعلية فتفيد بذلك ثبوت هذا الوصف فيهم كما في قوله تعالى: ﴿وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ﴾ النحل: ١٠٨، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ الروم: ٧، فالغفلة في كلا الموضعين آنفي الذكر غفلة ملازمة مانعة لا عارضة طارئة وذلك بقرينة الاستعمال الاسمي الدال على الثبوت.

فلا يُعقل أن تكون هذه الغفلة في الآيتين غفلة عارضة بسبب اقترانها بـ (عن) !! ويبدو أن أقصى ما يدل عليه هذا التركيب هو أن الغفلة التي اتصفوا بها على نحو الثبات وكانت ملازمة لهم، قد ابعدتهم عن آيات ربهم، وابعدتهم عن الآخرة.

أما ما ذكره الدكتور السامرائي لبيان قوله تعالى: (ودوا لو تغفلون عن اسلحتكم) من أن الغفلة فيها غفلة عارضة، فيبدو لي أنها ليست من استعمال حرف الجر (عن) كما ذهب إلى ذلك، بل هي مستفادة من الصيغة الفعلية التي تدل على التجدد وعدم الثبات. ويمكن أن يقال: إن (من) الجارة في النصين موضع البحث دالة على الابتداء لكنها متعلقة بمحذوف تقديره (جاءنا) فيكون المعنى: يا ويلنا قد كنا في غفلة عما جاءنا من هذا والله العالم.

(٨) دلالة (من) بين الابتداء والسببية والتبعيض.

اختلف النحاة في دلالة (من) الجارة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ الشورى: ٤٥. فقد ذهب بعض النحاة إلى أن (من) في قوله: (من طرف خفي) بمعنى الباء[٧١]. فيكون المعنى: ينظرون بطرف خفي، أي: إن نظرهم وقتئذ يكون بوساطة الطرف الخفي.

ورجح الدكتور فاضل السامرائي دلالتها على التبعيض قال: (ويترجح عندي انها للتبعيض، أي: ينظرون ببعض طرفهم وهو المناسب لمشهد الذل الذي هم فيه، ومثله في حياتنا اليومية أن يغضب أبٌ على ابنه في فعلة، فينهره ويغلظ عليه، والابن لا يستطيع مواجهة أبيه بكل طرفه بل ينظر إليه ببعض طرفه)[٧٢].

وهذا الرأي وإن كان لا يخلو من قوة إلا أن دلالة التبعيض التي ذكرها السامرائي يمكن أن تستشف من وصف الطرف بالخفي وهو الضعيف فيكون نظرهم في ذلك من طرف ضعيف، فلا حاجة إذن - والحال هذه - إلى ما ذكره الدكتور السامرائي بعد أن أفاد الوصف هذا المعنى. ومن هنا يرجح الباحث دلالة (من) في هذه الآية على الابتداء، أي: ابتداء نظرهم كان من طرف ضعيف. قال الزمخشري: (أي: يبتدئ نظرهم من تحريك لاجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف)[٧٣].

(٩) دلالة (من) بين السببية والمجاوزة.

واختلفوا في دلالة (من) الجارة في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ الزمر: ٢٢. فقد قيل: إن معنى (من) في قوله تعالى: (من ذكر الله) هو المجاوزة(٧٤)، فيكون معنى الآية: ابتعدت قلوبهم وتجاوزت عن ذكر الله، وكأن القسوة متضمنة معنى الابتعاد، والابتعاد عن ذكر الله ملازم لها فكلما اشتدت قسوة القلب ازداد بعداً عن ذكر الله.

قال تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ البقرة: ٧٤. غير أن هذا الرأي وإن كان سليماً، إلا أنه مخالف لظاهر النص الذي استعمل فيه (من) لا (عن)؛ لذلك ذهب بعض المفسرين والنحاة إلى أن (من) هنا ليست دالة على المجاوزة بل هي بمعنى السببية والتعليل، فيكون المعنى: أن هؤلاء كانت قلوبهم قاسية بسبب ذكر الله أو من أجل ذكر الله.

قال الزمخشري: (فإن قلت ما الفرق بين (من) و (عن) في هذا؟ قلت: إذا قلت: قسا قلبه من ذكر الله، فالمعنى ... أن القسوة من أجل الذكر وبسببه، وإذا قلت: عن ذكر الله، فالمعنى: غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه ونظيره: سقاه من العيمة. أي: من اجل عطشه، وسقاه عن العيمة: إذا أرواه حتى أبعده عن العطش)(٧٥).

فتكون دلالة (من) مستعملة في معناها الدال على السببية، وكأن النص المبارك أراد – من خلال هذا الاستعمال – أن ينبه على حقيقة قرآنية اشار إليها في غير موضع منه وهي أن الكفار ومن كان في قلبه مرض حينما تنزل عليهم الآيات المباركة وبسبب قلوبهم القاسية فإن تأثيرها يكون عكسياً عليهم، فيزدادون بها بعداً عن الله ويزدادون رجساً إلى رجسهم.

قال تعالى: ﴿وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ﴾ التوبة: ١٢٤-١٢٥.

وقال عز اسمه: ﴿وَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الزمر: ٤٥. فكأن ذكر الله سبب لاشمئزاز هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة. فالآية الكريمة موضع البحث أرادت أن تشير إلى هذا المعنى لا المعنى الذي ذكره النحاة.

(١٠) دلالة (من) الجارة بين البيانية والابتداء والظرفية.

اختلف النحاة في دلالة (من) الجارة في موضعين من الذكر الحكيم:

قال تعالى: ﴿أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [٧٦]، فقد قيل: إن (من) الجارة في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ جاءت بمعنى (في) الظرفية[٧٧]، ويبدو انه لا حاجة إلى العدول عن ظاهر الاستعمال القرآني وتحويل دلالة (من) من معانيها الرئيسة إلى معنى الظرفية، بعد ان اتضح من خلال التأمل في النص أن معنى الظرفية غير مراد فيها بل هي أقرب إلى أن تكون بيانية وهو الأنسب إلى سياق الآية المباركة؛ ذلك ان معنى الآية هو الإشارة إلى أن المخلوقات صنفان: أرضي وسماوي فيكون المعنى (أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات)[٧٨]. أو أن المعنى: أخبروني عن هؤلاء الشركاء... ماذا خلقوا من مخلوقات أرضية أم لهم شرك في خلق السماوات.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ الجمعة:٩، فقد نص عدد من النحاة على أن (من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ بمعنى (في) الظرفية[٧٩]. والذي يظهر من النص المبارك أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ ليس تحقق هذه الصلاة ووقوعها في هذا الظرف الزماني (يوم الجمعة) كما ظن النحاة، بل هو بيان هذه الصلاة التي ينادي لها بأنها صلاة الجمعة المعروفة لدى المسلمين والتي يُشترط فيها الخطبتان وحضور المسلمين جميعاً وحرمة البيع والشراء في اثنائها، ولعل ما يعزز هذا الرأي هو:

(أ) إن القول بظرفية (من) في الآية الكريمة مخالف لأساليب وطرائق التعبير القرآني إذ لم يرد فيه اقتران حرف الجر (في) بـ (يوم) بصيغته المفردة معرفاً بـ (أل) أو بالإضافة وإنما اقترنت بـ (يوم) النكرة الموصوفة، ولم يرد أيضاً دخول في الظرفية على ظرف الزمان (يوم) المضاف إلى معرفة، بل الثابت استعمال هذا الظرف المضاف من دون أن يسبق بـ (في) الجارة كما في قوله تعالى (يوم القيامة)[٨٠]، (يوم الفرقان)[٨١]، (يوم الحج)[٨٢]، (يوم الدين)[٨٣]، (يوم الوقت المعلوم)[٨٤] وغير ذلك كثير.

(ب) إذا كان معنى الآية – كما يقولون– ... نودي للصلاة في يوم الجمعة – فإنها – والحال هذه لا تدل على صلاة الجمعة فقط، بل تدل على كل صلاة تؤدّى في هذا اليوم كصلاة الفجر والعصر والمغرب والعشاء؛ لأن هذه الصلوات واقعة قطعاً في هذا الظرف الزماني. ذلك أن ثمة فرقاً بين قوله تعالى: ﴿نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾، وقولنا: نودي للصلاة في يوم الجمعة، فالأول تدل على صلاة خاصة وهي صلاة الجمعة ولا تدل على غيرها من الصلوات الواجبة. أما الثاني: فيدل على كل صلاة تؤدّى في هذا اليوم بما في ذلك صلاة الجمعة.

(ج) ما تدل عليه الآية الأخيرة من السورة نفسها وهو قوله تعالى: ﴿وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً﴾. فقد اتفقت كتب المسلمين أن هذه الآية نزلت عندما ورد المدينة عير معها تجارة وذلك يوم الجمعة والنبي ﷺ قائم يخطب خطبة الجمعة، فضربوا بالطبل والدف لإعلام الناس، فانفض أهل المسجد وتركوا النبي ﷺ قائماً يخطب[٨٥]، ولا يخفى أن هذه الآية والآيات التي قبلها ذات سياق واحد.

(د) ولا تدل (من) في هذه الآية على الابتداء في الزمان[٨٦]، لأن الابتداء في الزمان وإن أثبتنا مجيئه في مباحث سابقة إلا أن هذا المعنى في الآية هذه غير مراد، فهو فضلاً عن أنه خلاف الظاهر للآية الكريمة، فإن معنى الابتداء – كما يرى الرضي– (أن يكون الفعل المتعدي بـ (من) الابتدائية شيئاً ممتداً كالسير والمشي ونحوه، ويكون المجرور بـ (من) الشيء الذي منه ابتدأ ذلك الفعل نحو: سرت من البصرة، إذ يكون الفعل المتعدي بها أصلاً للشيء الممتد نحو: تبرأت من فلان إلى فلان، وكذا خرجت من الدار، لأن الخروج ليس شيئاً ممتداً، إذ يقال: خرجت من الدار إذا انفصلت عنها ولو بأقل من خطوة، وليس النداء حدثاً ممتداً ولا أصلاً للمعنى الممتد، بل هو حدث واقع فيما بعد (من))[٨٧]. ومن هنا يرجح الباحث أن تكون (من) هنا أقرب إلى دلالة البيان والتفسير منها إلى الظرفية أو الابتداء.

قال الزمخشري – في تفسير هذه الآية (فإن قلت: (من) في قوله تعالى: (من يوم الجمعة) ما هي؟ قلت: هي بيان بـ (إذا) وتفسير له)[٨٨].

(من) الجارة الزائدة

لم يقتصر استعمال (من) الجارة في الخطاب القرآني على الأصلية، بل وردت زائدة في كثير من مواضع التنزيل المبارك. وقبل الوقوف على جانب من هذه النصوص، لابد لنا من التعريف بمصطلح الزائد. فقد نصت المعاجم اللغوية على أن الزيادة لغة خلاف النقصان.

قال ابن فارس: (الزاء والياء والدال أصل يدل على الفضل، يقولون زاد الشيء يزيد فهو زائد)[٨٩]. أما اصطلاحاً فقد قيل إن حرف الجر الزائد (هو الذي لا يفيد معنى جديداً إنما يؤكد المعنى العام في الجملة كلها... سواء اكان المعنى العام ايجاباً أم سلباً، ولهذا لا يحتاج إلى شيء يتعلق به، ولا يتأثر المعنى الأصلي بحذفه، نحو: ليس من خالق إلا الله. فأتينا بالحرف الزائد (من) (لتأكيد ما تدل عليه الجملة كلها من المعنى المنفي، وتقوية ما تتضمنه من السلب)[٩٠]. وقد اشترط جمهور النحاة لزيادتها شرطين[٩١].

الأول: أن يتقدم عليها نفي أو نهي أو استفهام كقولنا: ما جاء من أحد أو هل جاء من أحد؟

الثاني: تنكير مجرورها.

وزاد بعضهم شرطاً ثالثا[٩٢]: وهو أن يكون المجرور بها فاعلاً أو مفعولاً به او مبتدأ.

وقد وردت (من) الزائدة في مواضع كثيرة من القرآن إذ أفادت في جميعها معنى التوكيد والتقوية للجملة التي وردت فيها؛ لأن هناك فارقاً بين القولين: ما جاءنا رجلٌ، وما جاءنا من رجل، فالأول يحتمل أنه لم يأتك أحد من الجنس، ويحتمل أنه لم يأتك رجلٌ واحدٌ بل أكثر من ذلك.

أما الثاني فأن النفي نصٌ في الجنس، وأنك تنفي أن يكون جاءك أحدٌ من الجنس[٩٣] ولا يخفى أن هذا النفي أقوى من الأول؛ لأنه ينفي الجنس كله بخلاف الأول.

ويختار الباحث طائفة من النصوص المباركة التي اتفق على زيادتها النحاة والمفسرون من ذلك مثلاً:

قوله تعالى: ﴿وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها﴾ الأنعام: ٥٩.

فـ (من) في قوله تعالى: (من ورقة) زائدة للتوكيد وإنما اقترنت (من) الزائدة هنا بالاسم (ورقة) لزيادة التوكيد في علم الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية، وإنما اختصت الورقة هنا بالذكر (لأنه مما يستصعب الإنسان حصول العلم به؛ لأن الكثرة البالغة التي في أوراق الأشجار تعجز الإنسان أن يميز معها بعضها من بعض، فيراقب كلا منها فيما يطرأ عليه من الأحوال، ويتنبه على انتقاصها بالساقط منها إذا سقط)[٩٤]. فكان مجيء الجار هنا مناسباً لسياق التوكيد.

قوله تعالى: ﴿وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام: ٣٨. فـ (من) في قوله تعالى: (من دابة) و (من شيء) زائدة في كلا الموردين[٩٥].

قال الزمخشري: (فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لها وما عليها، مهيمن على احوالها لا يشغله شأن عن شأن)[٩٦].

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ﴾ الملك: ٢. فقد جاءت (من) الجارة في قوله (من تفاوت) وقوله (من فطور) زائدة فيها[٩٧].

قال الطباطبائي(ت ١٤٠٢ هـ): (والخطاب في (ما ترى) خطاب عام لكل من يمكنه الرؤية، وفي إضافة الخلق إلى الرحمن إشارة إلى أن الغاية منه هي الرحمة إلى العامة، وتنكير (تفاوت) وهي في سياق النفي وادخال (من) عليه لإفادة العموم)[٩٨].

مناقشة رأي الأخفش

أجاز الأخفش زيادة (من) الجارة قبل المعرفة خلافاً لجهور النحاة مستدلاً بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ نوح: ٤. [٩٩]. قياساً على مواضع أخر من القرآن وردت فيها غير مقترنة بـ (من) الزائدة وذلك في قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الأحزاب: ٧١. وقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ الصف: ١٢.

غير أننا إذا تأملنا في النصوص المباركة التي وردت مقترنة بـ (من) مرة، ومجردة منها أخرى، فإننا نجد ان السياق مختلف في كلا الموردين، فلم يكن سياقاً واحداً (كي) يصح الاستدلال ببعضها على بعض. ويمكن توضيح هذه المسألة بشيء من التفصيل من خلال الوقوف على مواضع الآيات الخاصة بهذه المسألة. وقد تكرر التركيب القرآني (يغفر لكم ... ذنوبكم) ست مرات في التنزيل المبارك جاء في ثلاثة منها غير مقترن بـ (من) الجارة من ذلك:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الأحـزاب: ٧٠-٧١. ولا يخفى أن الخطاب في الآية المباركة للمؤمنين ومعناه: (راقبوا الله في حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم فأنكم

إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها)[١٠٠].

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ الصف: ١٢. [١٠١]. والخطاب في الآية المباركة موجه للمؤمنين أيضاً (أي إن تؤمنوا بالله ورسوله وتجاهدوا في سبيله يغفر لكم ... وقد أطلقت الذنوب المتعلقة بها المغفرة، فالمغفرة مقدمة الدخول في جنة الخلد، ولا معنى لدخولها مع بقاء بعض الذنوب على حالها)[١٠٢]. ومن هنا يتضح أن المواضع التي وردت فيها غير مقترنة بـ (من) الجارة هي خطاب للمؤمنين خاصة، وأن الله تعالى يغفر لهم ذنوبهم جميعاً، فلا تتناسب – والحال هذه –أن تقترن بـ (من) والدالة على التبعيض. وإذا انتقلنا إلى الطائفة الثانية من النصوص المباركة التي وردت في ثلاثة مواضع، نجد انها كانت خطاباً لغير المؤمنين كما في:

(أ) قوله تعالى: ﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللهَّ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ إبراهيم: ١٠. ولا ريب أن الخطاب في الآية المباركة موجه إلى الكافرين والمعنى: يدعوكم إلى الإيمان به ليغفر لكم بعض ذنوبكم، فـ (من) ليست زائدة وإنما هي دالة على التبعيض[١٠٣].

(ب) قوله تعالى: ﴿قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ نـوح: ٣-٤ [١٠٤]. وأنت تلحظ أن ظاهر الخطاب هو للكافرين لأن (في الكلام دلالة على ان قومه كانوا عرضة للعذاب قبل أن يأتيهم عذاب أليم، انه متوجه إليهم غير تاركهم لو لا تحذرهم منه... وكلمة (من)

للتبعيض على ما هو المتبادر من السياق، والمعنى أن تعبدوه وتتقوه وتطيعوني يغفر لكم بعض ذنوبكم وهي الذنوب التي قبل الإيمان والشرك فما دونه)[١٠٥].

ومن هنا نجد أن هذه المواضع التي جاءت فيها مقترنة بـ (من) كانت في سياق مختلف عن المجموعة الأولى، فهي خطاب للكافرين، قال الزمخشري: (فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله (من ذنوبكم)؟ قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله تعالى:﴿قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُم﴾ نوح ٣-٤. ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهَّ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ الاحقاف: ٣١. وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ الصف: ١٠، إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الصف: ١٢، وغير ذلك مما يوقفك عليه الاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد)[١٠٦].

أهم نتائج البحث

خَلص البحث إلى جملة من النتائج يمكن اجمالها في هاتين النقطتين:

١-إن ما ورد من معانٍ مختلفة ومتنوعة لهذه الأداة في المصادر النحوية لم يكن مستوحى من الخطاب القرآني والسياق الذي وردت فيه، بل هو مبني على نظر نحوي صرف.

٢-حاول البحث الإبقاء على المعاني الرئيسة لهذه الأداة كالابتداء والبيان والتبعيض والسببية التي وردت في الشواهد القرآنية التي استعملها النحاة لأنها الأنسب لسياق النص القرآني.

الهوامش

١- ينظر: المقتضب: ٤/ ١٣٦، الأصول في النحو: ١/ ٤٠٩-٤١٠، شرح الكافية: ٦/ ١١، مغني اللبيب: ٣٥٠-٣٥٤، شرح الأشموني: ٢/ ٧٠-٧٢، النحو الوافي: ٢/ ٤٢٥-٤٢٦.

٢-عرف النحاة حرف الجر الأصلي بأنه الحرف (الذي يؤدي معنى فرعياً جديداً في الجملة ويوصل بين العاقل والاسم المجرور)، النحو الوافي: ٢/ ٤٠٤.

٣-لسان العرب: ١/ ٣١، (بدء)، وينظر: معجم مقاييس اللغة: ١/ ١١٢-١١٣، (بدء) معجم مفردات ألفاظ القرآن: ١٣، المعجم الوسيط: ٤٢.

٤-الكتاب: ٢/ ٣٠٧.

٥-ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٦-ينظر: الأصول في النحو: ١/ ٤٠٩، شرح المفصل: ٨/ ٢٠، ارتشاف الضرب: ٢/ ٥٩٢-٥٩٣، حاشية الصبان: ٢/ ٣٢٨، حاشية الخضري: ١/ ٥٢٢.

٧-شرح الكافية: ٦/ ٦.

٨-الكتاب: ٢/ ٣٠٧.

٩-الأصول في النحو: ١/ ٤١١.

١٠-حاشية الصبان: ٢/ ٣٢١.

١١-ينظر: شواهد أخر في: النساء/ ٤٣، المائدة/ ٦، يونس/ ٢٢، يوسف/ ٢١، القصص/ ٢٠،...الخ.

١٢-ينظر: شرح المفصل: ٨/ ٢١، شرح الكافية: ٦ / ٨ ، ارتشاف الضرب: ٢ / ٥٩٢، مغني اللبيب: ٣٤٩، شرح ابن عقيل: ٢ / ١٥، حاشية الخضري: ١ / ٥٢٢، حاشية الصبان: ٢ / ٣٢٨.

١٣-ينظر: شواهد أخر في: البقرة/ ٨٩، الأنعام/ ١٠٤، الأعراف/ ٦٩، إبراهيم/ ٥، النحل/ ٣٠، الطلاق/ ١٠.

١٤-الكشاف: ١/ ٦٠٥.

١٥-معجم مقاييس اللغة: ١/ ١٤١، مادة (بعض).

١٦-المقتضب: ٤/ ١٣٦، وينظر: الأصول في النحو: ١/ ٤٠٩، شرح الكافية: ٦/ ٩، شرح المفصل: ٨/ ٢٢، مغني اللبيب: ٣٤٩، ارتشاف الضرب: ٢/ ٥٨٣، شرح التصريح: ١/ ٦٣٧.

١٧-ينظر: الكشاف: ١/ ٢٤٨، الميزان في تفسير القرآن: ٢/ ٨٣.

١٨-شرح الكافية: ٦/ ٩-١٠.

١٩-ينظر: الكشاف: ١/ ٢٤٨.

٢٠-ينظر شواهد أخر في: الحج: ٥، ٨، ١١، الأحزاب: ٢٣.

٢١-الكشاف: ١/ ٦٢.

٢٢-المصدر نفسه: ١/ ٦٢- ٦٣.

٢٣-معجم مقاييس اللغة: ١/ ١٧٠ (بين) وينظر: المعجم الوسيط: ٧٩ (بين).

٢٤-ينظر: الأصول في النحو: ١/ ٤١٠، شرح الكافية: ٦/ ٩، شرح المفصل: ٨/ ٢٣، مغني اللبيب: ٣٤٩، شرح الأشموني: ٢/ ٧٠، أوضح المسالك: ٣/ ١٨، النحو الوافي: ٢/ ٤٢٥.

٢٥-شرح الكافية: ٦/ ٩.

٢٦-الكشاف: ٣/ ١٥١.

٢٧-ينظر: شواهد أخر في: البقرة/ ١٠٦، المائدة/ ٩٠، فاطر/ ٢.

٢٨-ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤/ ٣٣٩، الكشاف: ٢/ ١٤١، مفاتيح الغيب: ٥/ ٣٤٦، روح المعاني: ٥/ ٣٣.

٢٩-لسان العرب: ٧/ ١٠١ (السبب)، وينظر: المعجم الوسيط: ٤١١.

٣٠-ينظر: ارتشاف الضرب: ٥٩٣، مغني اللبيب: ٣٥٠.

٣١-الكشاف: ١/ ٩١، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ١١٨.

٣٢-ينظر: شاهد أخر في: المائدة/ ٣٢.

٣٣-ينظر: مغني اللبيب: ٣٥٠.

٣٤-الكشاف: ٤/ ٦٠٨، وينظر: مفاتيح الغيب: ١٠/ ٦٥٨، الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٣٢.

٣٥-ينظر: حاشية الخضري: ١/ ٢٢٨-٢٢٩، النحو الوافي: ٢/ ٤٩٦-٤٩٧.

٣٦-ينظر: شرح الكافية: ٦/ ١١، ارتشاف الضرب: ٢/ ٥٩٣، مغني اللبيب: ٣٥٠.

٣٧-ينظر: الكشاف: ٢/ ٢٦٢.

٣٨-ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٩/ ٢٣٢.

٣٩-المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

٤٠-ينظر: النحو الوافي: ٢/ ٤٢٨.

٤١-ينظر: الكشاف: ٣/ ١١٦، الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ٢٣٨.

٤٢-ينظر: ارتشاف الضرب: ٢/ ٥٩٣، مغني اللبيب: ٣٥٠.

٤٣-الكشاف: ٤/ ٢٥٤.

٤٤-ينظر: مواضع أخر في: النحل/ ٧٢، ٨٠، ٨١، يس/ ٨٠.

٤٥-ينظر: شرح الكافية: ٦/ ٧، شرح المفصل: ٨/ ٢٢.

٤٦-ينظر: ارتشاف الضرب: ٢/ ٣٩٢، مغني اللبيب: ٣٤٩.

٤٧-شرح الكافية: ٦/ ٧.

٤٨-ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٤٩-معاني النحو: ٣/ ٦٦.

٥٠-شرح الكافية: ٦/ ٨.

٥١-ينظر: ارتشاف الضرب: ٢/ ٥٩٤.

٥٢-الكشاف: ٢/ ١٣١.

٥٣-ينظر: مواضع أخر في: مريم/ ٢٣، طه/ ١٣٠، النحل/ ٤٥.

٥٤-ينظر: مواضع أخر في: البقرة/ ٨٩، ٩٣، آل عمران/ ١٦٤، النساء/ ٩٤، الأعراف/ ٥٣، الأنفال/ ٧١، يونس/ ٧٤.

٥٥-ينظر: شرح الكافية: ٦/ ٨، حاشية الخضري: ١/ ٢٢٢، حاشية الصبان: ٢/ ٣٢٢.

٥٦-الكشاف: ٤/ ١٨٠.

٥٧-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٥٨-وردت لفظة (بين) غير مقترنة بـ (من) في مواضع عديدة من القرآن الكريم لتفيد دلالة الظرفية منها: البقرة/ ٦٨، ٩٧، ١٠٢، ١٦٤، آل عمران/ ٣، ٥٠، ١٠٣، ١٤٠، النساء/ ٥٨، ١٠٥، ...، الخ.

٥٩-الكشاف: ٢/ ٥٢٢.

٦٠-ينظر: ارتشاف الضرب: ٢/ ٥٩٤، مغني اللبيب: ٣٥٣.

٦١-ينظر: مغني اللبيب: ٣٥٣.

٦٢-الميزان في تفسير القرآن: ٢/ ١٦٩.

٦٣-وقريب من هذين النصين ورد في البقرة/ ١٨٧، الأنفال/ ٣٧.

٦٤-الكشاف: ١/ ٤٣٥، وينظر: اعراب القرآن للنحاس: ١/ ١٨٠.

٦٥-ينظر: مغني اللبيب: ٣٥١، حاشية الخضري: ١/ ٥٢٣، النحو الوافي: ٢/ ٤٢٩.

٦٦-لسان العرب: ١١/ ٦٧. (غفل).

٦٧-ينظر من ذلك: البقرة/ ٧٤، ٨٥، النساء: ١٠٢، يونس/ ٩٢، يوسف/ ١٣، الكهف/ ٢٨.

٦٨-ينظر: مغني اللبيب: ٣٥١.

٦٩-ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٤/ ٢٦٦.

٧٠-معاني النحو: ٣/ ٦٩.

٧١-ينظر: مغني اللبيب: ٣٥٢، وارتشاف الضرب: ٢/ ٢٩٤، النحو الوافي: ٢/ ٤٢٩.

٧٢-معاني النحو: ٣/ ٧٠.

٧٣-الكشاف: ٤/ ٢٢٤، وينظر: روح المعاني: ١٣/ ٥٠.

٧٤-ينظر: مغني اللبيب: ٣٥١، النحو الوافي: ٢/ ٤٢٩.

٧٥-الكشاف: ٤/ ١١٨، ينظر: روح المعاني: ١٢/ ٢٤٦ -٢٤٧.

٧٦-ينظر: مواضع أخر في: الأحقاف: ٤.

٧٧-ينظر: مفني اللبيب: ٣٥٢، روح المعاني: ١٤/ ٢٩٤.

٧٨-الكشاف: ٣/ ٥٩٩.

٧٩-ينظر: شرح الكافية:٦/ ٧، مغني اللبيب: ٣٥٢، التبيان في اعراب القرآن للعكبري: ٢/ ٤١٢، حاشية الخضري: ١/ ٥٢٣.

٨٠-ينظر: الآيات: البقرة/ ٨٥، ١١٣، ١٢٦، ١٧٤، آل عمران/ ٥٥، ٧٧، ١٦١، ١٩٤، النساء/ ٨٧، ١٠٩، ١٤١، ١٥٩.

٨١-الأنفال/ ٤١.

٨٢-التوبة/ ٣.

٨٣-الفاتحة/ ٤، الشعراء/ ٨٢، الذاريات/ ١٢، ... الخ.

٨٤-الحجر/ ٣٨، ص/ ٨١.

٨٥-ينظر: الكشاف: ٤/ ٥٢٤ - ٥٢٥، روح المعاني: ١٤/ ٣٠٠، الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ٢٤٣، معاني القرآن للفراء: ٣/ ١٧٥.

٨٦-أجاز الكوفيون استعمال (من) الجارة على ابتداء الغاية في الزمان استدلالاً بقوله تعالى:

(وإذا نودي للصلاة من يوم الجمعة)، ينظر: شرح الكافية: ٦/ ٧.

٨٧-شرح الكافية: ٦/ ٧.

٨٨-الكشاف: ٤ / ٥١٩.

٨٩-معجم مقاييس اللغة: ١/ ٥٤٠ (زيد)، ينظر: المعجم الوسيط: ٤٠٦. (زيد)

٩٠-النحو الوافي: ٢/ ٤١٨.

٩١-ينظر: شرح الكافية: ٦/ ١١، ارتشاف الضرب: ٢/ ٥٩٥، شرح ابن عقيل: ٢/ ١٦ - ١٧، حاشية الخضري: ١ / ٥٢٣.

٩٢-ينظر: مغني اللبيب: ٣٥٤، شرح التصريح: ١ / ٦٣٩.

٩٣-ينظر: المقتضب: ٤ / ٤٢٠، الأصول في النحو: ١/ ١٠٩، شرح الكافية: ٦/ ١٣.

٩٤-الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ١١٠.

٩٥-ينظر: التبيان في اعراب القرآن: ١/ ٣٨٧.

٩٦-الكشاف: ٢/ ٢٠.

٩٧-ينظر: المغني اللبيب: ٣٥٣.

٩٨-الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ٣١٠.

٩٩-ينظر: شرح الكافية: ٦/ ١١، ارتشاف الضرب: ٢/ ٥٩٥، مغني اللبيب: ٣٥٥، شرح ابن عقيل: ٢/ ١٧، شرح التصريح: ١/ ٤٦٠.

١٠٠-الكشاف: ٣/ ٥٤٦.

١٠١-ينظر: موضع آخر في: آل عمران/ ٣١.

١٠٢-الميزان في تفسير القرآن: ١٩/ ٢٢٨.

١٠٣-ينظر: الكشاف: ٢/ ٥٢١- ٥٢٢.

١٠٤-ينظر: موضع آخر في: الأحقاف/ ٣١.

١٠٥-الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٢٤- ٢٥.

١٠٦-الكشاف: ٢/ ٥٢٢، وينظر: شرح الكافية: ٦/ ١١.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١.ارتشاف الضرب من لسان العرب، ابو حيان الاندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، تحقيق: د. رجب عثمان محمد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١١م.

٢.الأصول في النحو، محمد بن سهل بن السراج (ت ٣١٦ هـ)، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م.

٣.اعراب القرآن، ابو جعفر، أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس (ت ٣٣٨ هـ)، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، ط٢، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٤.أوضح المسائل إلى ألفية ابن مالك، ابو محمد بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

٥.التبيان في اعراب القرآن، ابو البقاء عبد الله بن عبد الحسين العكبري (ت ٦١٦ هـ)، وضع حواشيه: محمد حسين شمس الدين، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م.

٦.التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨م.

٧.حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، محمد بن مصطفى بن حسن الخضري الشافعي (ت ١٢٨٧ هـ)، شرحها وعلق عليها: تركي فرحان المصطفى، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣م.

٨.حاشية الصّبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، محمد بن علي الصّبان (ت ١٢٠٦ هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد الهنداوي، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٩.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ)، تحقيق: علي عبد الهادي عطيه، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤م.

١٠.شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل (ت ٧٦٩ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١٤، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م.

١١.شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ابو الحسن نور الدين علي بن محمد بن عيسى الأشموني (ت ٩٠٠ هـ)، اشراف: د. أميل بديع يعقوب، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م.

١٢.شرح التصريح على التوضيح في النحو، الشيخ خالد بن عبد الله الأزهري (ت ٩٠٥

هـ)، تر: محمد باسل عيود السود، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١١م.

١٣.شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي النحوي (ت ٦٨٦ هـ)، شرح وتحقيق: أ. د. عبد العال سالم مكرم، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م.

١٤.شرح المفصل، ابن يعيش النحوي الحلبي (ت ٦٤٣ هـ)، تحقيق: د. عبد اللطيف بن محمد الخطيب، ط١، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤م.

١٥.الكتاب، كتاب سيبويه، ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠ هـ)، شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصور على طبعة بولاق، نشر مكتبة المثنى ببغداد.

١٦.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل، جار الله ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣م.

١٧.لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ)، ط٧، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠١١م.

١٨.مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، ط٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ/ ٢٠٠٥م.

١٩.معاني القرآن، ابو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، ط٢، الهيأة المصرية للكتاب، ١٩٨٠م.

٢٠.معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، ط٢، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان.

٢١.معجم مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥ هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.

٢٢.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٣.معجم مقاييس اللغة، ابو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت ٣٩٥ هـ)، وضع حواشيه: ابراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

٢٤.المعجم الوسيط، ابراهيم مصطفى وآخرون، المطبعة الإسلامية، استانبول، تركيا، د. ت.

٢٥.مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، (ت ٧٦١ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣م.

٢٦.المقتضب، ابو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٣٨٦ هـ.

٢٧.الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، تحقيق: الشيخ اياد باقر سلمان، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٨.النحو الوافي، عباس حسن، ط٤، انتشارات ناصر خسرو، ١٤٢٥هـ.